

18 الصادق الكذوب

ما برحت الأيام تؤكد أن ضخامة حجم معطيات التنظيم الحركي التي تجتهد الدعوة الإسلامية الحديثة هي أكبر مما صورتها تخمينات رجيل الدعاة الأول.

عرف ذاك الرجيل قابلية التنظيم الذي هم بصدد إنشائه على تجميع الجهود ونقل العمل من أطواره العفوية وارتباطه بردود الفعل الساذجة إلى تخطيط يوضح تفاضل الحاجات ، ويكشف المصلحة الكامنة في تجاوز المفضل منها في سبيل إسراع في الوصول إلى هدف أهم. ولم يكن ما سببته المحن المتلاحقة من تأخر في الوصول إلى الغاية النهائية ليثلّم صوراً متعددة لأكثر من نجاح حققته الدعوة في الوصول إلى أهداف مرحلية بارزة.

ومع ذلك، فإن هذا الانتقال إلى الانتظام الحركي، شأنه شأن كل خير، قد جاء بفوائد أخرى ثمينة لعلها لم تخطر على بال بعض الرواد الذين بدءوه .

مصفاة الرجال

وأجلى اتضح حاضر للفوائد التي لم تكن مرتقبة أول مرة يظهر فيها قام به العمل الحركي من استخلاص الصالحين فحسب من بين جمهرة المتصدين للنشاطات الإسلامية.

المتصدون كثرة كثيرة، ولكن مراتب نياتهم وهمهم ووعيمهم متعددة، حتى أن بعضهم لينزل إلى مستوى هابط يولد الضرر، من بين مدخول في نيته ؛ له إلى المنفعة الشخصية قدم ممدودة، وبارد في همته يتصدر في وقت

احتدام فيغفو ويسوف، أو قليل ذكاء لا ينظر ما حوله ولا له في معرفة الواقع نصيب.

وحالة التسبب والتفرد واستقلال شخصيات هؤلاء المتصدين لا يمكنها أن تقدم أبداً وسيلة للتمييز الضروري بين هذه المستويات المختلفة، إذ التمييز ليس هو إلا نتيجة لممارسة وزن الأشخاص وأعمالهم بميزان معين ونموذج محدد موصوف، وهذا التعيين والتحديد لا يتصور حصوله إلا من جماعة تتواطأ عليه مواطأة اقتناعية من لدن بعض أفرادها، تكتمل بمواطأة أخرى تفويضية يتنازل فيها البعض الآخر عن اجتهداتهم المخالف ويتعهدون بالعمل وفق اجتهد الفئة الأولى وإن قلت، حسبما يكون عليه النظام الذي ارتضوه لتحديد العلاقات، بينهم وتمثل كل خطة جماعية في حقيقتها مجموعة هذه المواطات.

وبذلك تصبح هذه الموازين المتفق عليها، المسماة بالخطة أداة تمييز بين المتصدين للعمل، من وافقها وكانت له القدرة على تنفيذ جزء منها حظي بوصف الصلاح، ومن خالفها، أو لم يستطع المشاركة في تنفيذ شيء منها نُحِّيَ إلى جانب إن لم يستقم أمره بعد محاولة تربوية وتدريبية معه.

فلولا الانتظام الحركي لما كانت هذه الخطة، ولولا الخطة لما كانت تنقية المتصدين، ولظلت جمهورهم متناقضة دوماً، وفي هذا ما يشير إلى أن ظاهرة الافتتان إنما هي ظاهرة طبيعية في الحركات، بل ما يشير إلى أنها ضرورة لازمة، لما فيها من تنقية مزيج الرجال المتباين النيات والقابليات والاجتهادات.

وكاد الشاعر القديم أن يقترب من هذه الحقيقة لما مدح صاحبه فوصفه

بأنه :

* محض إذا مزج الرجال، مهذب *

إذ ليس من الممكن استمرار التباين إذا مزج الرجال، بل لابد من تمحض المهذب الصالح مع أمثاله وظهورهم دون ما هنالك في المزيج من كدر وشوائب وغشاء.

أفرايت في الفيزياء كيف تعمل القوة المركزية عند حركة الدوران بمزيج ما على فصل مكوناته حسب كثافتها؟ فكذلك قوة الخطئة الصادرة من مركز التجمع، تفصل من خلال دوران دولاب العمل ومن خلال التحرك اليومي الهادف مزيج الرجال حسب كثافتهم النوعية، فمنهم الثقيل الراسخ، ومنهم الخفيف الطافي، فطرة الله تعالى التي خلق الناس عليها، كان ذلك قدرًا مقدورًا.

ولكن القدر يصارع بالقدر، والأسباب قريبة ميسورة، ولذلك كانت التربية الرفيعة، والندارة، من الواجبات المفروضة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

وأنوار الفطنة الماضية لم تأت إلا في هذا المساق التربوي، الذي يمد صاحب بذرة الحياة بحيوية نهاء ورباء.

وفي نفس المساق يرتفع على سارية التربية التحذيرية:

النور العشرون، واصفا جمال: تعليق التضحية على أمر القادة

فإن مبادرة الداعية إلى التضحية بروحه، بلا استئذان الأمير، مهدورة القيمة عند الفقهاء، مجردة من الفضائل، وربما كانت إثماً إذا نتج عنها توريط الدعوة بما لم تحسب له حساباً، وتكون عندئذ فتنة كبقية الفتن.

فقلة إدراك بعض متحمسة الدعاة لأصول العمل، وجهلهم بالواقع الذي يحيط بهم، يؤدي بهم أحياناً إلى فهم التآني والتربية المرحلية أو الحذر في الانتقاء على أنها بطء قيادي وخوف وإحجام عن الإقدام، فيخرجون إلى تهورات ومجازفات يؤكد النظر التحليلي فشلها ابتداءً، وينفون معنى الافتتان عنهم، لما هم فيه من تعريض أنفسهم إلى مخاطر قد تصل إلى بذل الروح.

وإنما هو ظن بعيد توهموه، ولو أرادوا مصلحة الدعوة خالصة من دون موافقة الخفي من شهوات أنفسهم لأعدوا لعملهم عدته الاستشارية، ولحرصوا على انتماؤه الخططية، ولكنهم قوم يستعجلون.

ولقد سئل الفقيه التابعي الجليل نافع المدني رحمته الله، مولى عبد الله بن عمر رحمته الله ووارث علمه، عن تضحية لا يحركها أمر قائد ولا توجبها خطة، فقليل له:

(هل يحمل الرجل إذا كان في الكتيبة بغير إذن إمامه؟)

فقال: لا يحمل على الكتيبة إلا بإذن إمامه ^(١).

وهذا جواب صريح: أن المسلم المنتمي إلى كتيبة إسلامية لا يهجم على كتيبة العدو إلا بإذن قائدها.

وظل هذا الفقه يحكم التضحيات، وينظم صرفها قروناً طويلة، حتى أخذ ابن قدامة الحنبلي، أحد أعلام الفقه المقارن، فقال:

(لا يخرجون إلا بإذن الأمير، لأن أمر الحرب موكل إليه، وهو أعلم بكثرة العدو وقلتهم ومكامن العدو وكيدهم، فينبغي أن يرجع إلى رأيه، لأنه أحوط للمسلمين) ^(٢).

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم ٤٨٧٣.

(٢) المغني ٨/ ٣٦٤.

فإذا كان هذا هو الأصل، فمن باب أولى أن يمتنع الذي هفا أول مرة واستعجل وأخطأ فصدر له الأمر بالامتناع، فإنه يظل في استثناء، حتى أن الأمر اللاحق الذي يستنفر الجميع لا يشمل، إلا أن يأذن له القائد إذنا خاصا يلغي منعه الأول، فقد:

(سئل الإمام أحمد عن الإمام إذا غضب على الرجل فقال: اخرج، عليك ألا تصحبني. فنأدى بالنفير، هل يكون إذنا له؟

قال: لا، إنما قصد له وحده، فلا يصحبه حتى يأذن له) ^(١).

فلا يباح للمطروود من صف الجماعة، ولا لعموم الدعاة، أن يتحركوا وفق اجتهادهم أبداً، لشمول الخطر الناجم عن أخطائهم المحتملة وتعديه إلى كل المسلمين، وكم من مشكلات أتت من قبل صاحب هوى، غوى، فطرد، فأراد التعويض من طريق يظنه قصيراً، ففشل، فأتعب الناس من بعده .

إن البيعة توجب طاعة الأمير في كل خطوة.

(إلا أن يتعذر استئذانه، لمفاجأة عدوهم لهم، فلا يجب استئذانه، لأن المصلحة تتعين في قتالهم، والخروج إليهم لتعين الفساد في تركهم.

ولذلك لما أغار الكفار على لقاح النبي ﷺ فصادفهم سلمة بن الأكوع خارجاً من المدينة تبعهم، فقاتلهم من غير إذن، فمدحه النبي ﷺ وقال: خير رجالتنا: سلمة بن الأكوع) ^(٢).

فافهم أيها المتحمس، وانتظر، فإنما لك من أجر الرباط مثل الذي تظنه من أجر الزحف، وانظر كمينا نصبوه للسدج، يغريهم ويمنيهم برئاسة زحف موهوم، وأعظم على رؤيته بقبس من:

(١) المغني ٨/ ٣٦٤.

(٢) المصدر السابق.

النور الحادي والعشرين، الذي يكشف أن :

قيادة الباطل مثلية، كما أن جنديّة الحق منقبة

فقيادة الباطل ليست بشيء، ولا لها في العرف والإسلامي قيمة، وإنما هي مجردة من الفضائل، حتى أن نفس صاحب المروءة لتعافها فطرة، وتعتبر إيرادها موضوع مساومة وثمان تأييد من أكبر الإهانة.

وهذا النور أوقده قاضي البصرة المحدث الثقة عبيد الله بن الحسن العنبري المتوفى سنة ١٦٨ هـ، فكأنه قد دعي إلى خروج عن الطاعة بتمنية من خلاصات الرئاسة، فأبى وقال:

(لأن أكون ذنباً في الحق أحب إليّ من أن أكون رأساً في الباطل) ^(١).

وما زالت البيعة تميز بين الاثنين هنا، تصف المطيع ومن بويع بالحق، وتضع ناكثها في صف المبطلين.

وإنما ديدن المسلم الأجر من رب العالمين، والأجر لا يأتيك إلا أن تتملق له بفرض ومندوب ومستحب ومكارم أخلاق، وللوفاء نسب مع كل هذه الدرجات، ولمحاسنه مرايا تعكس إشعاعاتهن جميعاً، فتجتمع الانعكاسات في بؤرة لتولد:

النور الثاني بعد العشرين، وعلى ضوئه نعرف أن :

أقوال الحق الصادقة لا تكفي لتزكية قائلها تزكية مطلقة

فقد يتكلم المبطل بكلام من الحق يريد به باطلا كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام، وربما يصدق الكاذب، ولكن المعول عليه سلوك القائل وتصرفه.

وكم من كلمة هي من الحق الذي لا شك فيه يوجب الورع السكوت

عنها في وقت معين أو تجاه سامع معين، سداً للذريعة، أو ترجيحاً لمصلحة أخرى تزاحمها، من تأليف قلوب، ومراعاة لمستوى الفهم، وغير ذلك.

وفي قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان السارق تأكيد لهذا المعنى الذي نقوله، من اعتبار سلوك القائل في الحكم عليه، فقد أخرج البخاري في مواضع من صحيحه بلفظ المتابعة غير الموصولة عن شيخه عثمان بن الهيثم بسند صحيح إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وكله بحفظ الطعام المجتمع من زكاة الفطر في رمضان، فأتاه سارق فجعل يحشو من الطعام، فأمسك به أبو هريرة، فاستدر عطفه، فأطلقه، ثم جاءه ثانية فأطلقه أيضاً، فلما جاءه في الليلة الثالثة قال أبو هريرة رضي الله عنه :

(لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ)، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود

ثم تعود:

قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها.

قال: أبو هريرة: قلت: ما هو؟

قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ

الْقَيُّومُ...﴾ حتى تحتم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح.

قال أبو هريرة: فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: ما

فعل أسيرك البارحة؟

قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله.

قال: ما هي؟

قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى

تحتم: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾، وقال لي: لن يزال عليك من الله

حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح.

وكانوا أحرص شيء على الخير.

فقال النبي ﷺ:

أما أنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟

قال: لا.

قال: ذاك شيطان ^(١).

قال ابن حجر:

(وقد وصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم من طرق إلى عثمان المذكور) ^(٢).

ففي هذه القصة مع طرافتها دليل واضح على أن صاحب الشر المبطل قد يتكلم ببعض ما هو حق ويتستر به ليصل إلى مراده، فيجب على الداعية المسلم المرتقي لمدارج الفضل أن لا ينخدع إذا أتته شياطين الإنس تريد أن تسرق ما معه من عمل صالح وتحثو منه في جعبتها الفارغة لقاء ثمن من الكلمات التي تدلل فيها تلك الشياطين على أن لها بعض الحق، بل يكون متيقظاً ناظراً لما تخفيه من أحوالها الباطلة، وشاعراً بما تبنيه على ذلك الحق الجزئي من نتائج باطلة، فيمسك الداعية بها من معاصمها بقوة، ويسلمها إلى ولي الأمر، ليمنع شرها عن قافلة الخير، فتستمر في السير على توهجات:

(١) صحيح البخاري ١٢٦/٣ طبعة صحيح.

(٢) فتح الباري ٣٩٢/٥ طبعة البابي.

النور الثالث بعد العشرين، الذي ينبهنا إلى أن :

سوء الرؤساء دليل ضرر المجموعة

وهو نور قرشي أصيل، أوقده سعد بن أبي وقاص رحمته الله لما خرج يوماً إلى طرقات المدينة، فرأى مالكا الأشر وصحبه يحاصرون عثمان بن عفان رحمته الله يريدون قتله، فقال:

(والله، إن أمراً هؤلاء رؤساءه لأمر سوء) ^(١).

وهذا ميزان مهم غالباً ما ينساه الذين يتعاملون مع الجماعات، ولو فطن له المخلصون لما انخدع أحد منهم بفتنة مفتتن يرفع عقيرته ببعض الحق الذي يريد من ورائه الباطل، فإن كل حزب أو جماعة أو كتلة سياسية أو فكرية تصطبغ في كثير من سياساتها الاجتهادية بآراء قادتها حتى ولو وجد نظام معين ومفهوم مدون لتلك الجماعة، إذ لا يحصر الأساليب جميعاً نظام، ولا يحيط بالمعاني كلها تدوين، ولا بد أن يبقى للاجتهاد الدور الرئيس الأول.

كما أن روح التقليد عند الأتباع، المؤدية لاستيعاب الإملاء الذي يملئ عليهم تضعهم في حالة انشداد للرؤساء، تتضاعف قوتها طردياً مع قابليات الرؤساء الفطرية، من ذكاء وشجاعة وقوة صبر على كثرة التحرك، ومع العوامل المساعدة لها، من تقدم في السن، أو قصة بطولة سابقة، أو نسب عريق، أو بلاغة لسان وقلم، إن لم يكن هناك شيء من التدليس وتسخير من يبيث المدح لهم، ومن أجل هذا قال عمر بن الخطاب رحمته الله مقالته المشهورة: (أخوف ما أخاف على أمتي من عالم باللسان جاهل بالقلب).

لكل ذلك لم يكن الفصل بين شخصيات قادة تجمع ما وبين تجمعهم كله سهلاً ميسوراً وإن عدد له في الفكر بنوداً ودون لعلمه دستوراً، بل الصواب

الذي ينبغي على المدعو لمناصرة جماعة ما أو دخولها أن ينظر الرؤساء، فإن وجد ثمة أسواء ومثالب ظاهرة أو يرويها الثقات عنهم توقف وتهيب وأخذ حذره، وأعرض عن كلام جميل يدور على ألسنتهم لعل الخدعة تقتضيه، كما اقتضت خدعة الصياد أن يقلد أصوات الطيور ويصفر بمثل صفيها لتنزل وتخط على شباكه المنصوبة.

وقد يرد العكس على جماعة خير تنادت لصالح تحت قيادة ثقات، مع أن انفرادها دون جماعة خير سبقتها يعد أمرًا مفضولاً وليس فاضلاً إن لم يكن لها مسوغ قوي يميز تفرداها، ولكن هذا العكس لا يرد أبداً على جماعة فتنة، تناجت ونكثت بيعة وانحازت إلى جانب وقدمت بعض أهل الفضل لها صدوراً، إذ المقياس يختلف هنا، ولا تمحو فضائل متعددة هفوة النكث الواحدة، وغاية أمر الصدور أن نحكم عليهم بأنهم بسطاء سذج وقعوا في الخلافة فصاروا لا يصلحون كقدرات وإن لم يتعمدوا الإساءة.



19 انهيار الضرار

يروى أن عبداً مهديا داعيا إلى الله تعالى نظر يوما إلى أصحابه من حوله، فأعجبه الذي هم فيه من جمال التعبد والإخاء.

ثم نظر أخرى، متأملا تقلب القلب، فأطرق، وبشعور مزيج من السرور والتخوف قال لهم:

(يا ملح الأرض لا تفسدوا، فإن الشيء إذا فسد لا يصلحه إلا الملح).

فكانت منه حكمة صادقة، تشهد حروفها أنها من كلام أهل التربية وممارسيها.

وكأنه ما من مصلح مربٍّ إلا وصى بها أصحابه مرارا وحين موته.

فجرائم التسمم، وبكتيريا العفونة، لا تنمو في بيئة ملحة، وكذلك أهل الفساد، لا يستطيعون رفع رءوسهم في بيئة يكون فيها الناهون عن المنكر.

إنه تصوير لواقع القلة المؤمنة من دعاة الإسلام بين الكثرة اللاهية المسترسلة مع أمور دنياها.

بهم يصلح الله كل فساد اجتماعي، فيقومونه من بعد الاعوجاج. وهم الذخيرة للأمة؛ يحفظون لها مصالحها كلما ضيعها شهواني ظلم، فيرجعونها إلى مكانة العز التي تنبغي لها.

فإذا اعوج الدعاة أنفسهم، وضيعوا رابطة إخوانهم، وألفوا بعض المنكر، فمن للأمة يصلحها؟ ومن للمجتمع يزيكه؟

لذلك بات النداء إلى التحاب وإيطاء الأكناف، ثم التواصي بإنكار

المكر، ركنين مهمين في التربية الجماعية الإسلامية، يكفلان تمكن الدعاة من أداء دورهم الواجب في مصادمة الفساد.

فالإخاء: يحفظ المجموعة، ويمنع التسبب، ويكسب الإنكار فاعلية تأثيرية.

والتواصي: ينقل المجموعة إلى الشجاعة في المواجهة والصبر عليها، وهذين الركنين التربويين تمكنت دعوة الإسلام الحديث من إنتاج (جماعة إنكار متألفة) أحييت سميت إخاء إيماني انقطع لقرون طويلة، وطفقت تضرب في النهي عن الفساد الأمثال، فشدت قلب يوسف القرضاوي إليها، فراح يصف في سنة ١٣٧٠ هـ حسن نهاذجها:

أعطوا ضربيتهم للدين من دمهم والناس تزعم نصر الدين مجاًناً
عاشوا على الحب أفواها وأفئدة باتوا على البؤس والنعماء إخواناً
الله يعرفهم أنصار دعوتهم والناس تعرفهم للخير أعواناً^(١)
هكذا، ليس غير.

أعوان خير، يقدمون ضريبة نصر الدين، على درب من الحب.

فلا عجب أن يكونوا الخط البارز في صورة الإسلام الحديثة.

ولا عجب أن يحرص كل ذي حرص على منع من يريد لهم انقراطاً يجرمهم القدرة على ممارسة الإنكار، ويضع في دربهم أحجار العثرات، فذاك سبب إيقادنا للأتوار.

غيرة على بهاء المنظر ونقاء الصورة من جانب، وكشفا للمتصدي الجريح الضعيف المتكلف لحشر نفسه في فجوات صفوف الصورة من جانب آخر.

فالأعمش تكثر في عينيه أشعة أنوار الفطنة، فتبهره، فيضع كفه على وجهه، ويطلب التواري، والأجهر يكون قريباً من النور وهو لا يبصره.

ولكن سليم العين يلتذ، وربما كان كمن ينظر من خلال عدسة تكبير.
أعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاء اليمامة
سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة
قدر وحظ لم يقسم للأعمش والأجهر أن يتمتع بها سبق أن أوقده فقه
الدعوة من أنوار.

أما الموفق فأهل لأن يزداد لذة، وأن ترتقي لأجله سارية أخرى، لنعلق
عليها مصباح:

النور الرابع بعد العشرين، فيتألق بوميض: الحرص على نجاة النفس

فإن الإمارة أمر شديد، من لم يستطع الوفاء بلوازمها قد يتعرض يوم
الحساب لنقاش دقيق، وكل إنسان خبير نفسه، ويفترض فيه أن يقدر تقديرًا
صحيحًا قدرته الفطرية على قيادة قومه ومدى دخل الظروف المحيطة به
وظروفه العائلية والمعاشية والصحية في أدائه لدوره، فمن ساق نفسه إلى
رئاسة وهو يعلم أن في الجماعة أفضل منه وأمهر، وأنه سيسبب ضياع
فوائد، ويعجز عن سد ثغرات محتملة فقد ظلم.

ولهذا خاطبك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، يسألك الرفق بنفسك من غد
لا تدري عظيم غضب الله عليك فيه، فقال:

(نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها) ^(١).

إذ الإمارة تحتاج إلى إحصاء من أطرافها، ورعاية وحسن أداء، وأنها

خزي وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها، ولا يصلح لها من كان على مثل ضعف أبي ذر رضي الله عنه ولو كان على مثل ما كان عليه من صدق اللسان وجمال العبادة.

وهذا المقدار هو من العلم الذي لم نر له في طلاب الرئاسة جاهلاً، لكنهم يؤخذون ويفتق عليهم من باب التقليد والمحاكاة، وقول: ليس فلان أفضل مني . فإن أحدهم يرى التنافس في الرئاسة يشغل أقرانه، ويظل يرقب ما يشجر بينهم، حتى ينسى معاني علمه، ويتأثر بمنظر التنازع دون قول فقه الدعوة.

وإنما كان خبير الفتن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يتخوف من مثل هذا، ويعدة باب ما بعده من الارتكاسات، فقال:

(إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثر ما يرون على ما يعلمون). هذا من مجرد الرؤية والمراقبة، فكيف إن اجتمع معها ترغيب وتشجيع ووصف لذات وجدوها؟

لا شك أن مخالفة العلم ستكون أسرع، والاستجابة أكثر احتمالاً. ولذلك دعاك الزاهد يحيى بن معاذ إلى الاعتصام بميزان ثالث في هذا الموطن تميز به صدق الخطيب الذي يدعوك فجزم لك بأنه:

(لا ينضحك من خان نفسه).

فالمنازع في الرئاسة، الملحاح في نزاعه، قد ورط نفسه، وأضعف احتمالات نجاتها، وتلك خيائته لها، فكيف يرتاد لك الخير من بعد؟

فانظر ناصحك، وسائل قلبك: هل خان نفسه ثم أتك، أم لا زال يكتال الحسنة؟

فإن كان ناصحًا لنفسه عرضت مفاد نصيحته على أنوار الفطنة لتؤيدها أو تكشف سذاجتها. وإن كانت الأخرى أعرضت. وإلا، فإن الزيغة الأولى منك تجلب ثانية رغما عنك، فإنها العقوبة الربانية:

﴿لَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وسعيد بن جبير إمام التابعين يندرک :

(إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها) ^(١).

فالزيع ولود، كما أن الإحسان ولود ودود.

لا بد من ذلك، حتى قال فقيه المدينة عروة بن الزبير بن العوام:

(إذا رأيت الرجل يعمل السيئة فاعلم أن لها عنده أخوات، وإذا رأيتَه يعمل الحسنة فاعلم أن لها عنده أخوات) ^(٢).

فتتوالى عثرات المصغي لحائن نفسه، حتى لقد رأينا في بعض البلاد رأي العين من طلب ذروة الرئاسة على قوم دعاة قد تراجع إلى الخلف بتدريج لما لم يحصل له مراده، فترك الأمر بالمعروف أول مرة، ثم ترك المسجد، ثم ترك نفس الصلاة واكتفى بالجمعة، ثم ترك الجمعة، ثم أفطر رمضان، ثم أصبح يغيب في نهار رمضان من يمر أمامه من الصائمين ينفث الدخان قرب وجوههم.

أفغير العقوبة أحاطت به؟

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١١.

(٢) تهذيب التهذيب ٧/ ١٨٣.

وهذا ما يدعوك إلى أن تفقه بدايات الفتن المقبلة من النظر إلى نهايات الفتن السابقة، فإنه قل من نجا من تراجع بعد الافتتان. ولذلك فإننا لا نجد أجمل من حرص الداعية على نجاة نفسه، وإلحاحه في طلب:

النور الخامس بعد العشرين، المعين على:

تمييز الغايات الصدامية في مساجد الضرار

كما ميزها الذين سبقونا في الانتماء إلى هذه الدعوة المباركة وعاصروا ذروة نشاطها قبل أن تمتحن، ورأوا كيف يعمل أعداء الإسلام على تَسْقُطِ أخبار المخالفين، فيدسوا إليهم من يؤرُّهم أَرًّا زائداً، ويعيب عليهم القعود عن الانتقام، ويحملهم على تجميع كل حائق في كيان منافس يرصد نفسه للمناوشة وتشبيط الجدد، ثم يتم اختيار اسم كبير ضخم لكيانهم يحاولون من ورائه تحويل الانتباه إليه.

وإنما هي مساجد الضرار يعاد بناؤها، بهندسة جديدة ولون مبتكر، لها إلى مسجد الضرار الأول نسب، ومع تاريخه ارتباط.

ويسألون: كيف تكون لنا جراءة على هذا الاتهام ودعوة الإسلام ليست حكرًا على أحد، بل لكل مسلم أن يتجمع ويعمل كيف يشاء؟

ولسنا بحمد الله للعمل حاكرين، ولكن يبطل عجب المتسائلين فحصهم لأطوار عمل من ننسبهم إلى الضرار، إن كان تأملهم لواقع المسلمين يحملهم على مصاولة حركات الإلحاد وأحزاب العمالة وتبليغ معاني الإسلام إلى السائلين اللاهين، أم هم قد عافوا أولئك وحاموا حول دعاة الإسلام ومناصريهم يصادمونهم ويشبطون، ويجادلونهم فيلهون؟

إن جماعة تدعي الإسلام، ثم تترك المجتمع الماجن والمنكر المستشري، والشباب الضائع، وتوجه إلى المصلين والمتقين حول دعاة الإسلام تزين لهم الانتساب إليها، وتلح في تهوين أمر الدعاة الآخرين، ورميهم بالاستبداد والافتقار إلى الوعي، فهي أخرى الجماعات باسم مسجد الضرار.

ومن ذا الذي في قلبه ذرة إيمان وألم على المصير الذي آل إليه أمر المسلمين ثم لا يفرح ويهش ويهش لأقوام يعالجون المرض ويستدركون الانفرط، وإن خالفوه في الاسم والأسلوب؟

ولكننا نعيب الصدام، وإلهاء العاملين، وندعو الذي لم يعجبه أسلوبنا واجتهادنا ويحاول العمل في جماعة أخرى إلى أن ينظر: أهى في تبشير وإنذار بمعاني الإسلام في الأوساط العامة وعلى اتصال بأفراد أهملهم الغير، أم تركت أولئك وأوساطهم والتفتت نحو مسلمين يعملون في مقاومة الفساد، تماريهم، وتحصي لمهم وتلبسه لباس الكبائر؟

فإن كان ديدنها الصدام توقف وأحجم وربأ بنفسه عن أن يشارك في إشغال السائرين، وإن وجد خيرًا نظر الأمر ثانية على أضواء أنوار الفطنة الأخرى، عسى أن يكون الخير مفضولا أو محفوفًا بخطر سوء الرؤساء.

إننا نقولها صريحة: إن من الأهمية بمكان أن يعرف كل من يريد المساهمة في النشاط الإسلامي أن المسجد الضرار النفاقي الأول:

(ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين؛ تتخذ في صورة نشاط ظاهرة للإسلام وباطنة لسحق الإسلام، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه! وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتسرس وراءها وهي ترمي هذا الدين! وتتخذ في صورة

تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير ولا خوف عليه ولا قلق. وتتخذ في صور شتى كثيرة^(١).

كذلك فإن من الخطورة بمكان أن يعطي المخلص أذنا صاغية منه لمن كان في مسجد ضرار ولم تشتهر له توبة حتى ، ولو انفرط عقد أصحابه وانهدم بنيانه وظن المخلص أنه سيتعامل مع فرد لا يستطيع الإضرار، فإن النفس تبقى موتورة خانقة غاضبة.

فيومها لما هدم الله الضرار الأول بأيدي المؤمنين بقيت ريبته في صدورهم، فقال الله تعالى بعد انهياره:

﴿لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٠].

وهي إشارة إلى طبيعة أصحاب كل ضرار، في كل زمان، بعدما يهدم الله بنيانهم.

فلقد انهار الجرف المنهار، (ولكن ركام البناء بقي في قلوب بُناته ؛ بقي فيها ريبة وشكاً وقلقا وحيرة ، وسيبقى كذلك لا يدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر. إلا أن تقطع وتسقط هي الأخرى من الصدور.

وأن صورة البناء المنهار هي صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار.

تلك صورة مادية، وهذه صورة شعورية، وهما تتقابلان في الواقع البشري المتكرر في كل زمان ، فما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع

العقيدة، حائر الوجدان، لا يطمئن ولا يستقر، وهو من انكشاف ستره في قلق دائم، وريبة لا طمأنينة معها ولا استقرار^(١).

ومثل هذا العنصر القلق ليس أهلاً أن نلتبس عنده النظر العادل حتى نمنحه السمع المصغي، بل نتجاوزه، ونطلب الخير على شعاع.

النور السادس بعد العشرين الالامع بمعاني:

مضاعفة الجذر من فتن آخر الزمان

فنحن أقرب إلى الساعة مما كان عليه المسلمون قبل أربعة عشر قرناً حين نزل قول الله تعالى: ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١] وهذه علامات تترى، وليس بآخرها، تطاول الحفاة العراة في البنيان، وتوسيد الأمر إلى غير أهله، ولفائف كأسنمة البخت المائلة فوق رءوس الكاسيات العاريات. وفي الحديث الصحيح أنه:

(لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى)^(٢).

وبصرى قرب الجولان جنوب دمشق.

وقد تحدث مؤرخ المدينة السهمودي عن نار عظيمة التهيبت من باطن الأرض وسالت أياماً قرب حرة المدينة الشرقية سنة ٦٥٤ هـ حتى جهدت حجارة سوداء، وكان نورها يشاهد من أطراف الحجاز، وشهد رعاة الإبل ببصرى أن إبلهم حصل لها التفات غريب لا يدرونه^(٣).

(١) المرجع السابق.

(٢) صحيح مسلم ٨/ ١٨٠.

(٣) رسائل في تاريخ المدينة، نشرها حمد الجاسر.

فإن لم تكن هذه النار هي المقصودة في الحديث فإن نارا وشيكة الخروج بالحجاز ستصاحب اكتشاف حقول النفط فيها بعد العزم على التنقيب وازدياد احتمالات وجود النفط حاليا قد تكون هي النار التي ستمد لها أعناق الإبل ببصرى، والله أعلم.

وللمحدث الهندي صديق حسن خان كتاب (الإذاعة لما كان وسيكون بين يدي الساعة)، جمع فيه علاماتها، وقد أعيد طبعه.

وليس للمؤمن إلا أن يصدق ويوقن بقرب الساعة، وإن كان ذلك لا يغنيه عن الأخذ بالأسباب والعمل بظاهر الشرع، فإنه لا يدري ما بين العلامات وبين قيام الساعة من زمن ومدة.

والمهم الذي يجب أن يفتن له الداعية أثناء انتباهه لإحصاء علامات الساعة ما ذكره رسول الله ﷺ من قلة الإيمان واضمحلاله عند اقترابها، فيأخذ حذرا مضاعفا إزاء كل سبب تواترت عند المؤمنين كثرة تأديته إلى ذلك الاضمحلال.

ومراقبة تواريخ الفتن ومصائر المفتنين يرينا ترديا كثيرا ما سار فيه الخارج عن الجماعة، ووصل به أخيرا إلى ترك الصلاة والتنصل من الالتزامات الإسلامية.

ولذلك وجب أن يحفل الداعية من اسم الفتنة، ويقشعر جلده من كل نداء عصيان لأوامر الجماعة وخطتها، ألا يسير في طريق ضمور والإيمان في ظرف مساعد من طبيعة آخر الزمان، حيث (تكثر الفتن) كما قال رسول الله ﷺ .

كيف لا والنفاق في آخر الزمان يعم الأقطار حتى يغزو نفس المدينة المنورة التي هي معقل الإيمان وداره؟

ففي الحديث الصحيح :

(إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها)^(١).

ولكن مع ذلك فإن أهلها لا يستطيعون في آخر الزمان الثبات على إيمانهم، فيتركونها استكباراً ونفاقاً وهي على أحسن ما تكون من وفرة الثمار والعمران، ويأبون أن يجاوروا رسول الله ﷺ أو أن يوصفوا بأنهم من سكنة المدينة، والعياذ بالله.

وقد ورد الخبر الصحيح بذلك في قول رسول الله ﷺ :

(يتركون المدينة على خير ما كانت، لا يغشاها إلا العواف. يريد: عوافي السباع والطيور).

وآخر من يحشر: راعيان من مزينة يريدان المدينة، ينعانان بغنمهما، فيجداها وحشاً، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خروا على وجوههما)^(٢).

وروى مالك عن ابن حماس عن عمه عن أبي هريرة رفعه: لتترك المدينة على أحسن ما كانت، حتى يدخل الذئب فيعوي على بعض سوارى المسجد أو على المنبر، قالوا: فلمن تكون ثمارها؟ قال: للعوافي: السباع والطيور).

أخرجه معن بن عيسى في الموطأ عن مالك، ورواه جماعة من الثقات خارج الموطأ^(٣).

وروى عمر بن شبة بإسناد صحيح عن عوف بن مالك قال: (دخل رسول الله المسجد، ثم نظر إلينا فقال: أما والله ليدعنها أهلها مذلة أربعين عاماً للعوافي)^(٤).

(١) صحيح البخاري ٢٦/٣.

(٢) صحيح البخاري ٢٦/٣.

(٣) (٤) فتح الباري طبعة بولاق ٧٧/٤.

وعمر هذا ثقة، وهو :

(عمر بن شبة بن عبيدة.. البصري، النحوي الأخباري نزل بغداد.

قال ابن أبي حاتم: كتبت عنه مع أبي وهو صدوق صاحب عربية وأدب.

وقال الدارقطني: ثقة.

وذكره ابن حبان في الثقات وقال: مستقيم الحديث^(١).

أفرايت؟

أهناك أشنع من هذه الفتنة وأكثرها منها هولاً؟

منبر رسول الله ﷺ يأتي الذئب فيعوي عليه! وسواري مسجد رسول الله ﷺ التي صلى عندها كبار الصحابة وأفذاذ الأعيان يعوي عندها الذئب!

فإذا كانت مثل هذه الفتنة العارمة تحدث في موطن الإيمان ولا يسلم منها مؤمنو المدينة، فكيف بمقدار الخطر الذي تفتحه علينا الفتن في غيرها من البلاد؟

إن الداعية يعتبر، ويدع الكثير مما يراه بعيداً عن البأس خوفاً أن يكون باباً وذريعة توصله إلى ما به البأس.

ولفؤاد البصير رجة مميزة عند ذكر هذه الأخبار، تلجئه ولا بد إلى حذر مضاعف يحفظ به ثروة الأعمال الصالحة التي حازها من خلال نشاطه غاديا ورائحاً في مصالح الدعوة، ألا يبدها في صفقة غابنة، مع صرخة فاتنة.



20 دماء على المصحف

يرينا استقرار واقع العمل الإسلامي وتاريخه القريب، في كثير من البلاد، أن أي قوة من قوى الحركة الإسلامية وتجمعاتها، حين تنطلق انطلاقاً مبدؤه النية الخالصة لنيل رضا الله سبحانه، فإن (شمولية الإسلام) تسم مفاهيم الحركة بسماتها، مقرونة باتجاه عملي لانتشال أكبر عدد ممكن من الشباب من براثن الضياع. وتظهر هذه الشمولية ورغبة الانتشال واضحة في مفاهيم الجماعة وشروطها، فترى جناساً بديعاً بين أحكام الإسلام كلها بارزة في تصرفات دعائها وسلوكهم، لا تخطئ عين المعامل لهم رؤية ما فيه من بيان وبلاغة تطبيقية، كما ترى خطابها للناس بسيطاً بعيداً عن التكلف والاجتهاد الغريب بجعله مفهوماً لدى الجميع، مع شرط متشدد في التجميع والتأثير يمنع احتمال الانحراف.

فالجماعة الصحيحة الاتجاه لا تعرف (القصورية)، ولا يفضح مستوى أعضائها التربوي قولها وادعاءها، بل هم يعظون ويبشرون بحكمة، ويجعلون بينهم وبين البدعة سترًا، ويربأون بأنفسهم عن تجزئ محصر قضية الإسلام في ثانويات يطغي الاهتمام بها على أصول العقيدة وعلى ما تعم بإهماله البلوي على الأمة من الأحكام، مثلما يربئون بها عن الاصطلاح المبهم، والجلد في الفروع، إذ ليس عمل الدعوة محاورات فلاسفة أبدًا.

ولذلك كان لا بد أن ترفع مثل هذه الجماعة أثناء مراحلها الأولى من خططها احتمال قبول من يخالف سميتها هذا بين صفوفها، وأن تلغي بتاتاً رغبة التكاثر بالأعضاء، إذ إن الهدف الذي من أجله وجدت الحركة

الإسلامية أرفع من مجرد التكاثر وأسمى، ولا تحل أزمة المسلمين الحاضرة بكثرة المتجادلين في الجزئيات، فإن الناس تلفهم ظلمات متراكبة من البدع، أو الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض. كما أن دعاة الإسلام أنفسهم ربما لفتهم ظلمات الرياء والهوى ومحبة الرياسة، والحاجة ماسة إلى إيقاد أنوار إيمانية تجلي الظلام الذي سجي.

فليس ديب الذر فوق الصفاة في الظلام بأخفى من رياء ولا شرك فهما يتسربان بأخفى من مشية النمل فوق صخرة ملساء في ليلة ظلماء. فأما الشرك الخفي فهو ما يقع فيه الناس اليوم من الاحتكام إلى غير ما أنزل الله تعالى جحدًا وتكبرًا.

وأما الرياء فهو ما يقع بسببه الخلاف بين دعاة الإسلام أحيانًا، فترتفع معه الأخوة ولا ينتهي حتى يقوم شاعرهم يعاتب ويوبخ:

أبعد الصفاء ومحض الإخاء بقيم الجفاء بنا يخطب؟
وقد كان مشربنا صافيا زمانًا، فهل كدر المشرب؟
وكل أحد يعلم أنه زلال لم يكدر، ولم تغيره الشوائب، فإسلامنا هو إسلامنا.

ودعوتنا هي دعوتنا.

وأساليبنا تزيدها تجارب الأيام صفاء.

ولكن النفوس هي التي تتكدر، فيتغير المذاق، ويصبح الحلو مرًا.

والظلام يلف هذا الشارب المتكدر، مثلما يلف ذاك الكافر المتعثر، وإن اختلف اسوداده.

فمن أحسن قولاً، وأوقد نوراً، فهو للصواب قد فعل، ومن خالف وسار عكس الاتجاه نادينه أن:

* خل الطريق لمن يبني المنار به *

لا لأننا نحتكره، أو نرى ضيقه، بل هو طريق فسيح عريض، ولم تجد الأثرة لها فيه ثغرة لتدلف منها ففسده، ولا يقف التعنت خلف أبوابه ليمنع ولوج مخطئ قد استبد به الحنين، وملك عليه التحذير من الصفقة الغابنة جوانب قلبه، فأطلق منه لسان الاعتذار، وعزم على الأوبة إلى مباحج الفطنة، ولكن لأن الشرع أعطانا حق إزالة أسباب الضرر التي توضع عبر طريقنا، وإنما نحن بناء منارات هدى، ليس لذى معاكسة أن يزاحمنا في طريق مهنتنا التي شغفناها حباً في هذه الحياة، وما من مخلص إلا ومتاعب الأمة تخاطبه أن يساعدنا ويشد أزرنا، أو يدعنا نوقد الأنوار، ونواصل رفع القواعد من:

المنار السابع بعد العشرين، الناشر لإشعاع: الاتعاظ بالتاريخ

فإن التاريخ يكشف لنا عن دور اليهود في تجريح القيادات المسلمة كلما رأوا نجاحها وفشل أساليبهم الأخرى في محاربة الإسلام، بل أصبح النيل من القادة، ومحاولة تحطيم مكانتهم المعنوية في نفوس المسلمين، هو الأسلوب المفضل عندهم.

إنه (التماسك حول العقيدة القويمة والقيادة الأمانة هو الذي يتعب اليهود وأعداء الجماعة المسلمة - في كل زمان - وهو الذي يكلفهم الجهد والمشقة، ومن ثم تتجه جهودهم أولاً لتحطيمه)^(١).

وتوضح الفتنة التي حدثت زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه هذا الدور والتخطيط اليهودي جلياً، ودورانه حول محور واحد هو: إفساد طاعة الجنود لأمرائهم.

فقد كانت لعثمان رضي الله عنه اجتهادات في أمور بسيطة استغلها المغرضون في التشنيع عليه وإلباسها لبوس الإحداث في الدين، مثل إتمامه الصلاة في منى أيام موسم الحج، وحرق المصاحف التي تخالف مصحفه الذي دونه كبار قراء الصحابة بإشرافه، وإنهائه نفي الحكم بن أبي العاص ورده إلى المدينة بعد أن أبعدته النبي صلى الله عليه وسلم عنها، وله خطبة أثبتها ابن العربي في كتابه (العواصم من القواصم) بين فيها صواب اجتهاداته هذه .

ولكن اليهود رصدوا هذا الاختلاف البسيط في الصف المسلم، فسدوا رجلاً منهم تظاهر بالإسلام، اسمه عبد الله بن سبأ، ليطور الخلاف إلى فتنة عارمة. يقول الطبري في تاريخ:

(كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء، أمه سوداء، فأسلم زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر).

لكنه كان يتسقط خلال رحلته هذه كل سارق وقاطع طريق ومفسد نالته عقوبة من أحد الولاة فتوترت نفسه، ويواعدهم أن يكونوا بالمدينة أيام يكون الناس حجاجاً بمكة، لينقلبوا على عثمان والناس غافلون.

ووضع لهم خطة أوجزها بقوله لهم:

(انفضوا في هذا الأمر، فحركوه، وابدءوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر)^(١).

(١) تاريخ الطبري، الطبعة الأولى، القسم ٦/ ٢٩٤٢، ٣٠١٨، ٣٠٢٠.

هكذا، باسم الأمر بالمعروف يكون الهدم.

إنها الخطة الدائمة لكل ذي هوى.

وباسم مصلحة الدعوة تتطور الخلافات اليوم إلى فتن.

ثم كان من ابن سبأ أن:

(بث دعائه، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولائهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء) ^(١).

وبهذا فسدت النفوس، وحاد يوم انقلابهم، فإذا بهم حول دار عثمان يحاصرونها، ثم دخلوا عليه وانفردوا به ليأتوا بالعجائب!!
(فضربه الغافقي بحديدة معه، وضرب المصحف برجله، فاستدار المصحف واستقر بين يديه، وسألت عليه الدماء) ^(٢).

(فسال الدم على المصحف وهم في ذلك يهابون في قتله، وكان كبيراً، وغشي عليه، ودخل آخرون، فلما رأوه مغشياً عليه جروا برجله، فصاحت نائلة وبناته، وجاء التجيبي مخترباً سيفه ليضعه في بطنه فوقته نائلة، فقطع يدها، واتكأ بالسيف عليه في صدره، وقتل عثمان ^{رحمته الله}) ^(٣).

(1) تاريخ الطبري، الطبعة الأولى، القسم الأول ٦/ ٢٩٤٢، ٣٠١٨، ٣٠٢٠.

(2) تاريخ الطبري، الطبعة الأولى، القسم الأول ٦/ ٢٩٤٢، ٣٠١٨، ٣٠٢٠.

(3) تاريخ الطبري، الطبعة الأولى، القسم الأول ٦/ ٢٩٤٢، ٣٠١٨، ٣٠٢٠.

(وأما عمرو بن الحمق فوثب على صدره وبه رمق، فطعنه تسع طعنات قال: فأما ثلاث منها فإني طعنتهن إياه الله تعالى ، وأما ست فلما كان في صدري عليه.

وأرادوا قطع رأسه، فوقعت نائلة عليه وأم البنين، فصاحتا وضربتا الوجوه، فقال ابن عديس: اتركوه، وأقبل عمير بن ضابئ فوثب عليه، فكسر ضلعًا من أضلاعه^(١).

فبربك: أهذا خلاف بين مسلمين أم مجزرة شيوعية كمجزرة الموصل؟
هكذا أعداء هذا الإسلام دومًا.

يريدون قطع رأس الجماعة، وكسر أضلاع تنظيماتها، والمبرر: (الله) كما قال ابن الحمق!!

وبصيحة (الله) هذه ضاع ألف من شباب الدعوة بالأمس القريب، وثبطت جموع، وكشفت أسرار، وملئت سجون.

ولو صدقوا لقالوا مثل ما قال ابن الحمق مستدركا: (ست لما في الصدر)!!

وأراد أهل عثمان دفنه.

(فلما سمعوا بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة، وخرج به ناس يسير من أهله وهم يريدون به حائطًا بالمدينة يقال له: حش كوكب، كانت اليهود تدفن فيه موتاهم، فلما خرج به على الناس رجوا سريه، وهموا بطرحه).

ذلك أنهم منعوا دفعه بالبقيع وقالوا:

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ١٧٩.

(والله لا يدفن في مقابر المسلمين أبدًا)^(١).

وقتل مع عثمان عبدان دافعا عنه، (فجر بأرجلها، فرمي بهما على البلاط، فأكلتهما الكلاب)^(٢).

فانظر كيف تطور الاعتراض على الاجتهادات إلى قتل، وكسر ضلوع، وتمثيل وطعنات ودفن في مقابر اليهود، وتقديم جثث أعزها الله وكرمها طعامًا للكلاب!!

فهل يأمن المخلصون إذا لم يسلكوا سبيل الاعتراض الصحيح اليوم ومالوا إلى تشهير وافتتان أن تنتهي اعتراضاتهم إلى أضرار كبيرة؟
لا والله، فإن من شأن الفتن دوما أنها تتطور وتغفل السيطرة عليها، والفتن من وعظه التاريخ، وسارع إلى تناوش قبس من:

النور الثامن بعد العشرين، المتوقد بجمال: الإعراض عن الجاهلين

فإن الخارجين يديمون الاحتكاك بأفراد الجماعة كي يبقوا مادة لتماسكهم، ولا بد من تفويت مقصدهم بالسكوت وعدم الالتفات إلى تحرشهم، مع نظرة رافة ورحمة لهم تقود لسان أحدنا إلى أن يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

فمن أخلاقه ﷺ أنه كان لا يغضب لنفسه قط، وهذا يوجب على الداعية إن سمع كلمة تعريض به أن لا ينفع، إن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وقد قال الله تعالى عن نفسه: ﴿وَهُوَ تَوَكَّلُ الْفَصْلِحِينَ﴾ (١٣٦) [الأعراف: ١٩٦]، والإعراض عن الجاهلين معنى من معاني الصلاح قطعاً.

وليعلم الداعية أن مدافعة الخصوم لا تكون أشد من مدافعة الأعداء في ساحات القتال، والمدافعة في ساحة القتال لا تكون بالالتحام دائماً ؛ وإنما هناك الاختفاء والسكوت أيضاً، ولما نادى أبو سفيان المسلمين في معركة أحد بأعلى صوته: هل فيكم محمد؟ هل فيكم أبو بكر؟ هل فيكم عمر؟ لم يجبه أحد، مع أن الجواب كان أبعث للغیظ في قلب أبي سفيان من السكوت، ولكن الموقف كان يستلزم السكوت.

فإذا حصل مثل هذا في سوح القتال فحصوله في الحياة اليومية أولى. إننا أصحاب دعوة أيها الأخوة، ولا يجوز أن ننزل عن مستوى دعوتنا الرفيع إلى حضيض التراشق برديء الكلام، ولا يعذرنا الله إذا تركنا هذا المستوى العالي الذي أكرمنا الله به بحجة أن غيرنا جرننا إليه، إذ المؤمن لا يترك درجة من درجات إيمانه باستغواء من شيطان أو بجهالة من جاهل، بل من الواجب أن نقول: اللهم اغفر لنا وله، واهدنا وإياه، ولا تجعل غضبنا لأنفسنا، ولا في عملنا شيئاً من أهوائنا. فإذا قلنا ذلك فإن سكينه غامرة ستتنزل على قلوبنا تزيد متعتنا بأضواء:

النور التاسع بعد العشرين، حين يكشف لنا سبيل: كبت الإشاعة

بعدما عاب الله إذاعتها في قوله:

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [النساء: ٨٣].

(والصورة التي يرسمها هذا النص، هي صورة جماعة في المعسكر

الإسلامي، لم تألف نفوسهم النظام، ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر، وفي النتائج التي تترتب عليها، وقد تكون قاصمة، لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث، ولم يدركوا جدية الموقف، وأن كلمة عابرة وفلته لسان قد تجر من العواقب على الشخص ذاته، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال، وما لا يتدرك بعد وقوعه بحال؟ أو ربما لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر.

وهكذا لا يعينهم ما يقع له من جراء أخذ كل شائعة والجري بها هنا وهناك، وإذاعتها، حين يتلقاها لسان عن لسان، سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف، فكلتاهما قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة، فإن إشاعة أمر الأمن مثلاً في معسكر متأهب مستيقظ متوقع لحركة من العدو... إشاعة أمر الأمن في مثل هذا المعسكر تحدث نوعاً من التراخي مهما تكن الأوامر باليقظة، لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر، وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية.

كذلك إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته، ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة، قد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكاً، وحركات لا ضرورة لها لالتقاء مظان الخوف، وقد تكون كذلك القضية.

وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه، أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته، أو هما معاً، ويبدو أن هذه السمة وتلك كانتا واقعيتين في المجتمع المسلم حينذاك، باحتوائه طوائف مختلفة المستويات في الإيمان، ومختلفة المستويات في الإدراك، ومختلفة المستويات في الولاء، وهذه الخلخلة هي التي كان يعالجها القرآن بمنهجه الرباني.

والقرآن يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح :

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ﴾

﴿مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

فمهمة الجندي الطيب في الجيش المسلم، الذي يقوده أمير مؤمن - بشرط الإيمان ذاك وحده - حين يبلغ إلى أذنيه خبر، أن يسارع فيخبر به نبيه أو أميره، لا أن ينقله ويذيعه بين زملائه، أو بين من لا شأن لهم به، لأن قيادته المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة، كما تملك تقدير المصلحة في إذاعة الخبر - حتى بعد ثبوته - أو عدم إذاعته ^(١).

فمن أرتة هذه الأنوار طريقة فهو الموفق، وإلا أوقدنا له:

النور الثلاثين كمحاولة أخيرة :

هو نور تحذيري أحمر اللون يندربالخطر البالغ، ويشير إلى وجوب :

خوف تنكر الأرض والمؤمنين للخوالف

فكل امرئ لاقى الذي كان قدّمًا، وكل امرئ يجزى بما كان ساعيا، وجل حصاد المرء من حيث يزرع.

فمن خالف الجماعة فإنه لن يجد إلا وحشة، حتى قال كعب التائب **جهلته** : (تنكرت لي الأرض فما هي بالتي أعرف).

(فتنكر له نفسه حتى ما كأنه هو، ولا كأن أهله وأصحابه ومن يشفق عليه بالذين يعرفهم، وهذا سر من الله لا يخفى إلا على من هو ميت القلب) ^(٢).

(والخوف والهجم: مع الريبة، والأمن والسرور: مع البراءة من الذنب.

(١) في ظلال القرآن ٥ / ١٧١.

(٢) زاد المعاد ٣ / ٢٠.

فما في الأرض أشجع من بريء ولا في الأرض أخوف من مريب ، وهذا القدر قد ينتفع به المؤمن البصير إذا ابتلي به ثم راجع^(١) .

وإنه لما يحرص عليه المؤمن العاقل أن يكثر من يحبه من المؤمنين ، ويدوم محبتهم له حتى ساعة موته ، ليصلوا على جنازته فيقولوا : اللهم اغفر لحينا وميتنا ، اللهم اغفر لنا وله .

وهذا كما حرص عليه كعب بن مالك التائب رضي الله عنه ، فإنه وصف نفسه أيام المقاطعة فقال :

(ما من شيء أهم إليّ من أن أموت فلا يصلي عليّ النبي ﷺ ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة ، فلا يكلمني أحد منهم ، ولا يصلي عليّ)^(٢) .

فالذي لم تعجبه قواعدنا وموازيننا وأنوارنا السابقة ، ويتأول لخلافه مع ذلك بعض التأويل ، مدعو إلى أن يهرب مقاطعتنا له ، ألا يموت من غير مستغفر له من الدعاة .

ذلك أن الفقهاء أجازوا لنا ترك السلام على مقارف الذنب ، وترك رد السلام عليه ، تأديبا له ، وخلع البيعة ، ونكث العهد ، من أكبر الذنوب .

نعم ، يجب أن نوقع هذه العقوبة بحذر بالغ ، وبأمر الأمير لا بمبادرة من الأتباع ، ولكن الفقه أجازها استثناء من الأمر بإفشاء السلام ، لتعلقها بمعنى الردع والتأديب .

قال أبو داود :

(١) المصدر السابق .

(٢) صحيح البخاري ٨٨ / ٦ .

(إذا كانت الهجرة لله فليس من هذا شيء، وإن عمر بن عبد العزيز غطى وجهه عن رجل).

قال: (وابن عمر هجر ابنا له إلى أن مات) ^(١).

وقد خصص البخاري أكثر من باب في صحيحه لبيان جواز ذلك فقال: (باب: هل للإمام أن يمنع المجرمين وأهل المعصية من الكلام معه والزيارة ونحوه؟) ^(٢).

ثم أورد حديث الثلاثة الذين خلفوا كجواب على سؤاله، تدليلاً على الجواز:

وقال أيضًا:

(باب ما يجوز من الهجران لمن عصى) ^(٣).

وأورد حديث الثلاثة أيضًا:

وعلى ذلك مضى فعل العلماء، وعلى الأخص هجرهم لمن يبتدع. بل كانوا يهجرون أشقائهم، كما حدث للمحدث الصدوق الثقة أحمد ابن حرب الموصلي، إذ:

(هجره أخوه علي لمسألة اللفظ) ^(٤).

أي لقوله: لفظي بالقرآن مخلوق، مع أن قوله هذا تحتمله مذاهب أهل السنة، ولكن جهره به في وقت شاعت فيه بدعة خلق القرآن أجفل أخاه فأنكر عليه، وهجره.

(١) سنن أبي داود ٥٧٧/٢.

(٢) صحيح البخاري ١٠٢/٩.

(٣) صحيح البخاري ٢٦/٨.

(٤) تهذيب التهذيب ١/٢٣، ١٦٧.

وكان إبراهيم بن المنذر الحزامي المدني من ثقات العلماء، ومن شيوخ البخاري وغيره، ولكنه أثناء محنة خلق القرآن لان وخلط، فذمه أحمد، ولم يرد عليه السلام^(١).

ومن مثل هذا استل ابن تيمية مشروعية الهجر للمخطئ وإن كان من أهل الفضل في جوانب أخرى^(٢).

وكل هذا مما فصله الحافظ ابن حجر بتفصيل جيد، فقال: (ذهب الجمهور إلى أنه لا يسلم على الفاسق ولا المبتدع).

قال: (وقال المهلب -أحد شراح البخاري-: ترك السلام على أهل المعاصي سنة ماضية، وبه قال كثير من أهل العلم في أهل البدع، وخالف في ذلك جماعة).

(وألحق بعض الحنفية بأهل المعاصي من يتعاطى خوارم المروءة، ككثرة المزاح واللهو وفحش القول والجلوس في الأسواق لرؤية من يمر من النساء، ونحو ذلك. وحكى ابن رشد قال: قال مالك: لا يسلم على أهل الأهواء، قال ابن دقيق العيد: ويكون ذلك على سبيل التأديب لهم، والتبري منهم).

ثم قال: (وقال النووي: وأما المبتدع ومن اقترف ذنبا عظيما ولم يتب منه فلا يسلم عليهم ولا يُرد عليهم السلام، كما قال جماعة من أهل العلم، واحتج البخاري لذلك بقصة كعب بن مالك).

قال: (وهو مما يُخصُّ به عموم الأمر بإفشاء السلام عند الجمهور)^(٣).

(١) تهذيب التهذيب ٢٣/١، ١٦٧.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/٢٧٧.

(٣) فتح الباري، طبعة الحلبي ١٣/٢٧٨.

وليس ترك الجماعة والنزاع معها وعصيان أوامرها بأقل من هذه الذنوب التي ذكرها جمهور الفقهاء، والتحلل من الوفاء ببيعة واجبة من أكبر خوارم المروءة فوق كونه حرامًا. فانظر لنفسك أيها المخالف.

إن كنت تتأول لنفسك وتأبى التغافر والالتفات إلى عيب النفس، وتلزم النجوى، والجدل، ولا تقيس حالك على التعرب بعد الهجرة، ولا تريد الاتعاظ بالتاريخ، ولا تتقي طبائع آخر الزمان، فهلا ترفق بحالك إزاء مؤمنين سوف لا يسلمون عليك ولا يستغفرون على جنازتك يوم موتك؟ فاحفظ مصلحتك، وتواضع، وامش مع القافلة، نحفظ لك حقك ما دمت حيا، ونوصلك إلى قبرك باستغفار، ولا ندع النائحة المستأجرة تنفرد بنعيك!

